# سعد زغلول وعقيدة الإخلاص

# بين المسلمين والأقباط

كانت السنواتُ ما بين ١٩٠٦ و١٩١٠ من أسوأ السنين فيما يتعلق بتأزمِ العلاقةِ بين مسلمي مصرَ وأقباطِها . فخلالُ تلك السنوات وكنتيجةٍ لسياساتِ ممثلِ الإحتلالِ البريطاني في مصرَ سير الدون جورست وسلفه اللورد كرومر , والتي قامت على بذرِ بذورِ الحزازات بين المسلمين والأقباط عن طريقِ التناحرِ على المصالحِ بوجهٍ عامٍ والتنافس الدامي على الوظائفِ بوجهٍ خاصٍ , ناهيك عن إذكاء نار التعصب ولا سيما بالإيعاذ للأقلية القبطية أن أبنائها لا ينالون حقوقهم كاملة وأن الفرص لا تتاح لهم كما تتاح للمسلمين .

نتيجة لذلك تأزمت العلاقةُ بين مُسلمي مصرَ وأقباطها بشكلٍ لم يسبق له مثيل في تاريخِ مصرَ الحديث . وقد بلغ تأزمُ العلاقةِ حداً بعيداً عندما أخذت الصحفُ اليومية تعبر عن وجهتي النظر في الخلافِ المشتعلِ بشكلٍ زاد من إشتعالِ نارِ الخلاف .

وفي أطروحة نال بها الدكتور حسن الموجي درجة الدكتوراة في الإعلام عن موقف الصحافة الشامية من مشاكل الواقع المصري خلال السنوات ما بين ١٩٠٠ و١٩١٤ عرضٌ شيقٌ للغايةِ للكيفية التي إنعكس بها هذا الخلاف على كبرياتِ الصحفِ المصريةِ يومذاك. فقد بلغ التأزمُ أقصَاه عندما قُتِلَ بطرس غالي باشا رئيس وزراء مصر القبطي يوم ٢٠

فبراير ١٩١٠ برصاصةٍ أرداه بها شابٌ مصري مسلم هو إبراهيم الورداني . وخلال هذه السنوات كان سعدُ زغلول وزيراً في كل الوزاراتِ التي تعاقبت على حكمِ مصرَ إبتداءً من وزارةِ مصطفى فهمي باشا الأخيرة (١٩٠٦ – ١٩٠٨) ووزارة بطرس غالي باشا (١٩٠٨ – ١٩١٠) ثم وزارة محمد سعيد باشا منذ ١٩١٠ وحتى إستقالة سعد زغلول الشهيرة سنة ١٩١٢ .

خلال تلك السنوات أتيح لسعدٍ الذي ساعدته طبيعتهُ كرجلِ قانون ومحامي وقاض ذاع صيت عدله كما ساعدته ثقافته التي جمعت بين التراث والثقافة العصرية , أقول مكنه ذلك أن يراقب الأزمةَ ويقف على حقيقتها وبذورِها . أدرك سعدٌ بنظرهِ الثاقبِ وحنكته التي كونتها تجاربُ السنين الخصبة أن "العدل" بين طرفي الأمة يقضي على أية فتنة طائفية . كذلك أدرك سعدُ زغلول أن مبادرةَ الأغلبيةِ بكفالة الشعور بالأمان لدى الأقلية هو الأمر الطبيعي والذي ستنجم عنه حالة سلم حقيقية لا ظاهرية , وأن الأقباط عندئذ سيكونون أبعد ما يكونون عن التعصب أو الخوف أو القلق على أنفسهم وعلى أبنائهم وعلى أموالهم .

وقد إختزن سعدُ زغلول كل خبراته في الحياةِ سواءً إبان الثورةِ العرابيةِ التي شارك فيها أو أيام السجنِ القديمةِ أو تجارب الحياةِ إبان إشتغاله بالمحاماةِ ثم القضاء ثم وزيراً ثم نائباً منتخباً عن الأمةِ في الجمعيةِ التشريعيةِ (١٩١٣ – ١٩١٤) ثم سنوات المخاض الأخير خلال سني الحربِ العالميةِ الأولى , فقد إختزن سعدُ زغلول الدرس الأعظم المستفاد من مراقبةِ تلك التجربة . وعندما وضعته مؤهلاتهُ الفريدة فى موضع القائدِ الأوحد لثورة ١٩١٩ فإن سعداً وظَّف خلاصةَ تجاربهِ فى الحياةِ ومن بينها

تجربة تأزم العلاقات بين مسلمي مصرَ وأقباطِها خلال السنوات ما بين ١٩٠٦ و ١٩١٢ أكمل توظيف . فإذا بقيادتهِ الروحيةِ الفذة للثورةِ تجعل من فُرقاء الأمس الألداء رُفقاء الثورة المشتعلة الأصفياء وجنودها الأوفياء . ورغم إعتقادي أنه لا توجد أية حاجة لتقديم الأدله على إئتلاف مسلمى مصرَ وأقباطها إئتلافا بالغ الروعة منذ إشتعال ثورة ١٩١٩ بسبب القبض على الرجل الذى اجتمعت ثقةُ عنصرى الأمة فيه ، حيث أن جميع المؤرخين قد أوفوا هذه الظاهرة حقها .

فإنني أودُ أن أقتطف فقرات من كتاب "موسوعة تاريخ مصر" (الجزء الرابع – صفحة ١٥٦٧) للأستاذ / أحمد حسين حيث يقول فى وصف مظاهرة الشعب الكبرى يوم ١٧ مارس ١٩١٩ (ولعل أروع ما أبرزتة هذه المظاهرةُ الكبرى هو هذه الظاهرة التى سيطرت على الأحداثِ من اللحظةِ الأولى ، وهى ظاهرة التضامنِ الوثيقِ بين المسلمين والأقباط بعد أن تصور الأنجليز أنهم نجحوا فى التفرقةِ بين عنصرى الأمة ، فإذا بالمفاجأة وكم لثورة ١٩١٩ من مفاجأت ، تظهر كيف ساد التلاحمُ بين المصريين فى لحظة وأصبحت الكلمة التى تتردد على الشفاة "الدين لله والوطن للجميع" وظهرت الأعلامُ فى هذه المظاهرةِ الكبرى وقد رسم عليها الصليب مع الهلال).

فمن أعظم ثمار ثورة ١٩١٩ روح وعقيدة الإخلاص للوطن التي تجلت بوضوح ــ كما يقول المؤرخون ــ في اتفاق الأقباط والمسلمين من كافة فئات الشعب وطبقاته الي درجة تبادل اللقاءات والزيارات بين رجال الدين المسيحي والإسلامي في المساجد والكنائس وقام المصريون بمناسبة

هذا الوئام وتعبيرا عنه ــ كما يقول أحد المؤرخين ــ بصنع أعلام وضعوا عليها الصليب مع النجمة والهلال وكان المتظاهرون يحملون أعلام جميع الدول ومنها المحايدة عدا العلم الانجليزي وكان الوفد المصري منذ تأليفه حريصا علي هذا التآلف الوطني وأن يضم بين أعضائه أقباطا ومسلمين .

يقول الزعيم سعد زغلول في مذكراته فكرنا في انتخاب جورج بك الخياط لضمه الي الوفد وقبل أن يقبل سألنا عن شأن الأقباط بعد الاستقلال التام الذي كان يسعي اليه سعد وصحبه من خلال مشروع تأليف الوفد المصري فقلت سعد يكون شأنهم شأننا لا فرق بين أحد منا إلا في الكفاءة الشخصية فُسر لذلك وطلب منا أن نسجله وضع الأقباط في محاضرنا وفعلنا ذلك وذكر سعد زغلول في مذكراته وكان سينوت بك حنا أول شخص من الأقباط فكرنا فيه وكان من الأسباب التي دعت الي وضع صيغة الحق في انتخاب من نشاء وانضم بعد ذلك جورج بك الخياط وقد كلف الوفد ــ أثناء وجوده خارج مصر والإعداد للسفر الي أمريكا لعرض قضية مصر ــ قرياقوس ميخائيل المقيم في لندن بعمل نشرة تشمل أهم ما تنشره الصحف الأمريكية عن مصر وأن يسعي في استكتاب ما يمكن من الجرائد ضد لجنة ملنر لصالح القضية المصرية .

ويصف أحد كبار المؤرخين الاجتماع الذي شهدته الكنيسة المرقسية في ٢١ نوفمبر بأنه كان مظهرا بديعا للتضامن القومي ففي ٢١ نوفمبر استاء الأقباط من موقف رئيس الوزراء القبطي يوسف وهبة باشا وقبوله تأليف الوزارة واجتمعوا في الكنيسة المرقسية وأعلنوا سنحطمهم علي وهبة باشا وقبوله الوزارة وقالت الطائفة القبطية المجتمعة وفيها ٢٠٠٠

قبطي أنها تحتج بشدة علي شائعة قبولكم الوزارة وقالت أيضا إذا هو القبول قبول للحماية الانجليزية علي مصر ولمناقشة لجنة ملنر وهذا يخالف ما اجتمعت عليه الأمة وطلب الاستقلال وقالت الطائفة نستحلفكم بالوطن المقدس وبذكري أجدادنا العظام أن تمتنعوا عن قبول هذا المنصب الشائن.

وفي ١٢ ديسمبر ١٩١٩ شهدت ذات الكنيسة اجتماعا عظيما من السيدات المصريات مسلمات وقبطيات للاحتجاج علي وزارة يوسف وهبة باشا وقدوم لجنة ملنر وأصدرن بيانا برأيهن وتأييد مقاطعة لجنة ملنر والاحتجاج علي قدموها والتمسك بالاستقلال التام وكان سينوت حنا من الشخصيات القبطية البارزة وقد تجلي التآلف الوطني والقومي في شخصه وقيامه بافتداء الزعيم مصطفي النحاس .

ولد سينوت حنا في أسيوط ١٨٨٠ من عائلات الصعيد العريقة وكان من أصدقاء مصطفي كامل وعرف سعد زغلول في الجمعية التشريعية وانضم الي الوفد المصري في نوفمبر ١٩١٨ وكان من الموقعين علي النداء الموجه الي الشعب في ٢٤ مارس ١٩١٩ كما يشير المؤرخ عبد العظيم رمضان وانتخب عضوا بمجلس النواب المصري عام ١٩٢٤ وافتدي بنفسه أثناء النضال ضد إسماعيل صدقي فقد تلقي سينوت حنا عن مصطفي النحاس طعنة السونكي التي طعنه بها أحد الجنود الذين اعترضوا سيارة النحاس في مدينة المنصورة يوم ٢٨ يوليو لإيقاف الركب عن سيره .

أجمع المؤرخون علي أن من حق الأمة المصرية أن تفتخر بثورة ١٩ التي تعد من الثورات الناجحة في تاريخ الحركات القومية وأنها حققت

نهوضا ونجاحا في كافة مناحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية النجاح السياسي للثورة وإن كانت الثورة لم تفلح في إجلاء الاحتلال فإنها قد حققت مكاسب قومية كبيرة ونجاحات علي المستوي السياسي .

وهو ما أكده ورصده المؤرخون حيث اعترفت الحكومة البريطانية في فبراير ١٩٢١ أن الحماية علاقة غير مرضية وأعلنت إلغاءها في تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ وحق الشعب المصري الشرعي في حكم نفسه بنفسه وإقرار حقوقا لمصريين وحرياتهم السياسية والشخصية بإقرار الدستور نظاما للحكم وإعلانه عام ١٩٢٣ والذي قرر سلطة الأمة وحد من سلطة الفرد ومن التدخل الأجنبي .

وهي بذلك قد أفلحت فيما أخفقت فيه الثورة العرابية من حيث تقرير الدستور نظاما للحكم في مصر كما يقول أحد المؤرخين الثورة والنهضة الاجتماعية كان للثورة كذلك أثرها في تطور النهضة الاجتماعية وازدياد عناصر النشاط فيها اذ أخذت طبقات المجتمع ــ كما يقول عبد الرحمن الرافعي ــ تحت تأثير الثورة تسلك مرحلة جديدة من مراحل العمل والنهوض .

وأول ظاهرة للتطور كانت شيوع الروح الرياضية في الشباب وغيرهم وتأليف الجماعات والنوادي الرياضية وفرق الكشافة المصرية في المدن والأقاليم وتأسست في أبريل ١٩٢٠ جمعية الكشافة الأهلية وكان نمو الروح الرياضية نتيجة للروح التي أوجدتها الثورة في النفوس الثورة والنهضة النسائية وكان لثورة ١٩ أيضا أثرها في النهضة النسائية .

فقد اعتادت النساء تأليف المظاهرات وإلقاء الخطب في التجمعات وتأليف الجمعيات ونشر آرائهن في الصحف والمجلات وساهمن في تطور الحوادث العامة والقيام بأعمال البر والإحسان خاصة بقصد النهوض بالطبقات الشعبية النهضة التعاونية والعمالية>

وأشار المؤرخون إلي أن الثورة كان لها أثر فعال في النهضة التعاونية والعمالية بعد أن كانت قد ركدت خلال الحرب العظمي الأولي حيث بعثت من جديد الحركة التعاونية وزادت الجمعيات التي انتشرت في العواصم والمدن والقري عام ١٩٢٠ وكان لها فضل كبير في مكافحة الغلاء والتيسير علي الطبقات الفقيرة واستأنف التعاون نشاطه في الريف والحضر الثورة والنقابات ونشطت الحركة العمالية خلال الثورة وفي أعقابها وزاد شعور العمال بالتعاون والمطالبة بحقوقهم وكثرة مطالبهم فألفت الحكومة في أغسطس ١٩١٩ لجنة للتوفيق بين العمال وأصحاب العامل وتعددت النقابات العمالية وسرت الروح النقابية كما يشير أحد المؤرخين كالمعلمين والخبراء والصحفيين والأطباء والتجار وبعض الموظفين فشرعوا من ذلك الحين في تأسيس نقابات لهم .

وبذلك كان للثورة أثر في النهوض بكافة الجوانب الاجتماعية النهضة الاقتصادية ظهرت في أعقاب الثورة دعوة الزعيم الاقتصادي طلعت حرب الي تأسيس بنك مصر في أغسطس ١٩١٩ وناصره الشباب وأيدوه وبثوا دعوته بين طبقات الشعب في المدن والأقاليم فنجحت الدعوة الي هذه المؤسسة العظيمة وتأسس البنك عام ١٩٢٠ الذي كان نواة للنهضة

الاقتصادية والمالية التي ظهرت بعد الحرب العالمية الأولي وهـــي الثمـــرة الاقتصادية للثورة .

ويؤكد عبد الرحمن الرافعي المؤرخ الكبير أن الروح العامة التـــي أوجدتها الثورة في النفوس كان لها أثرها في نجاح دعوة طلعـــت حـــرب مشيرا الي أن الدعوة الي تأسيس البنك الوطني كانت قد ظهرت إبان الثورة العرابية ثم تجددت قبل الحرب العالمية الأولي وقبل ظهور ثورة ١٩ بـــأكثر من ١٠ سنوات لكنها لم تلق من الأمة التأييد الذي يكفل لها النجاح .

وهو ما يؤكد أن الثورة بعثت في نفوس الشعب قوة معنوية كفلـــت نجاح الدعوة الي تأسيس بنك مصر نجاح معنوي أما النجاح الذي يـــرتبط بتاريخ الثورة القومي حيث تألفت من الثورة صفحة مجيدة من البطـــولات والتضحية جديرة بأن تحيي في النفوس روح الإخلاص للوطن التـــي هـــي عدة النضال والكفاح .

**من أشهر اقواله**

- الحق فوق القوه والأمه فوق الحكومة.
- إن اختلاف الرأى لا يفسد للود قضية.
- الرجل بصراحته في القول وإخلاصه في العمل.